



الخلاص

مقدمة:

هذه هي القصيدة الأخيرة قبل قصيدة الخاتمة، يا رب سهل !

سبق أن كتبت فصلا بأكمله بعنوان "أمي" في الترحال الثالث من ترحالاتي (سيرة ذاتية في أدب رحلات)، ولا أجد عندي رغبة أن أضيف كثيرا أو قليلا في هذه المنطقة. لكن هذه القصيدة ليست هي أمي بقدر ما هي رحلتى شخصا وأمي في خلفيتها. أفضل لو بدأ القارئ بقراءة ذلك الفصل وهو يحتوي هذه القصيدة ضمنا، كما يحتوي نقدي لنهايتها مما سوف أورده غالبا فيما يلي من حلقات.

لكن هذا الشرح على المتن يهتم أكثر بربط هذه القصائد بما هو علاج نفسي، وأنا أتساءل الآن وأنا على وشك الانتهاء من العمل،

هل هو حتم على أن أفتعل هذا الربط حتى لو لم يرد تلقائيا؟

ربما كان الأمر كذلك، وإلا لماذا هذا الكتاب كله أصلا؟

تبدأ القصيدة بجوار مع أمي هكذا:

-1-

- ليه يامه؟ كان ليه؟

لما انتى ما "نتيش" كان ليه ؟
 أنا ذنبى إيه ؟
 أنا مين ؟ أنا فين ؟ أنا كام يامه ؟
 أنا إيه ؟
 = جرى إيه يا ابنى يا حبة عيني،
 طب ما انت أهة !
 بقى دا اسمه كلام
 ما هو كله تمام
 جرى إيه ؟!

تبدأ رحلة الوجود باعتراف الأم بأن وليدها قد أصبح خارجها، كيانا منفصلا عنها، بمجرد انتهاء وجوده خما ودما داخلها، ينتقل الوليد من الرحم الجسدى، إلى الرحم النفسى، فى الرحم الجسدى تكون الحماية محيطة، وفى نفس الوقت الحركة طليقة، لكن ليس لها هدف إلا الحركة، كما يكون الأمان كاملا، أما وقد صارا جسدين بينهما مسافة، فإن الحركة تصبح محكومة "بمضور معا" على مسافة متغيرة، غير مضمونة، تحكمهما قوانين جديدة، مهددة أحيانا.

منذ حفل "السبوع" تلجأ الأسرة إلى التأكيد على الأم أن تشد انتباهها أن الكيان الذى كان بداخلها تماما، أصبح خارجها، أصبح كيانا مستقلا جسديا على الأقل، كبدية للحمل فالولادة النفسية، ذكرنا من قبل كيف أن السبوع بكل طقوسه المنظمة فى المكان والحركات والأهازيج تؤكد كلها هذه الرسالة. الكآبة التى تصيب الأم فى الايام الأولى للنفس (حوالى 60 % Maternity Blues) هى تفاعل طبيعى لهذا الانفصال، واستعداد مناسب لعلاقة بين الأم ووليدها من نوع آخر.

حتى تسمح الأم بهذا الانفصال، وتتعرف بوجود هذا الكائن الجديد خارجها، وهو الكائن الذى حملته وهنا على وهن ثم وضعتة بكل الألم الخلاق، لا بد أن تكون هى "كائنة" حاضرة بشكل ما، أن تكون موجودة ساعية تعطى الغذاء العلاقاتى عبر الحبل السرى التواصلى، كما كانت تعطى خلاصة الاحتياجات الغذائية والتنموية عبر الحبل السرى داخل الرحم، ولكن لى تفعل ذلك بكفاءة لا بد أن تكون هى نفسها "كائن موجود قادر" يمارس علاقات الأخذ والعطاء. لى "تعطى" هى فى حاجة أن تأخذ أيضا فى نفس الوقت، أو قبلا، من أى مصدر بشرى آخر: أمها عادة، وزوجها (والد هذا الوليد) أحيانا (يا ليت! فالفروض أن يشارك الوالد الصحيح فى الحمل والولادة ضمنا بطريق غير مباشر)، حضور أم الوالدة (فعلا أو بديلها) هو حضور أساسى أثناء الولادة وقبيلها، الوالدة "تتقطف" على صدر أمها أثناء المخاض بما يؤكد حاجة الأم أن "تكون" وهى تستعد لأن تعطى شهادة الكينونة للقادم الجديد، فإن لم

"توجد" الوالدة أصلا بهذا المعنى الإنسانى الأساسى، فكيف ننتظر منها أن تعترف لغيرها (وليدها) بما تفتقر هى إليه جدا ،

تبدأ القصيدة هكذا :

ليه يامه؟ كان ليه؟

لما انتى ما انتيش كان ليه؟

هذا اللوم : هل يعنى أن الأم التى "لم تكن" التى هى ليست "كائنة" فعلا بما هى الآن، لا تستطيع أن تعطى وليدها حقه فى الوجود كما ينبغي؟ الإجابة بالنفى طبعاً. لا أحد يكون هكذا بما هو جاهزا للعطاء غير المشروط، وإنما نحن جميعاً "نتكون" باستمرار، ولهذا لا يجوز أن نلوم أحداً على أنه لم "يكن"، خاصة الأم، (لما انتى مانتيش) لكننا ربما نلومه على أنه توقف عن أن "يتكون"، وهذا أيضاً يكون فى حدود الفرص المتاحة، وقليلة هى هذه الفرص عادة ، وفى مجتمعنا خاصة بالنسبة للمرأة بالذات، لكن حاجة الطفل لا تحسبها هكذا، هو يريد الاعتراف بغض النظر عن تبريرات من حوله أو ظروفهم الواقعية .

أحياناً يولد طفل ما وعنده حاجة قصوى جاهزة للتأكيد على حق الاعتراف هذا (وذلك لأسباب وراثية أكثر من غيره)، وبالتالي يكون العيب فى "نهم برنامج احتياجه" أكثر من قلة مصادر ربه، ويواصل الطفل بوجه عام، وهذا الطفل بوجه خاص: صراخه المعلن عن حرته الوجودية، وحاجته الأساسية بأى قدر من الاعتراف، بهذا الإلحاح المتسائل، فى كل اتجاه :

أنا مين؟ أنا فين؟

أنا كام يامه؟

أنا إيه؟

تعدد الكيانات جاهز فى التركيب البشرى منذ البداية، "أنا كام؟"، التساؤل هنا لا يقتصر على "أنا مين؟" أو "أنا إيه؟" ولكنه يمتد إلى "أنا كام؟". فى التحليل التركيبى structural analysis يولد الطفل زهو يحمل "مشاريع" الذات كلها تقريبا، مشاريع بمعنى "برامج" تنتظر التشغيل والتشكيل والنمو، والتساؤل هنا لا يكون واعياً طبعاً، لكنه وارد كامن. لا يطل هذا التساؤل عادة فى الوعى الظاهر إلا مع (1) بدايات الذهان، أو فى (2) أزمت النمو، أو مصاحباً (3) لإرهاصات الإبداع، تساؤل الطفل البدئى هنا هو نفس التساؤل، لكن دون ألفاظ طبعاً، وأيضاً بوعد فطرى كلى غير محدد .

ترد الأم بطيبة دافئة، وفى نفس الوقت بدهشة مفهومة :

= جرى إيه يا ابني يا حبة عيني،

طب ما انت أهة !

بقى دا اسمه كلام ؟!!؟

ما هو كله تمام

جرى إيه !

"كله تمام" بمقاييسها الآلمة، وفي حدود قدرات عطائها المتواضعة

ثم تنتقل الرسالة فجأة إلى مخاطبتها طفلها "الوالد" أملا داعما منتظرا، الأم تعتبر ابنها والدها أحيانا منذ الولادة.

رحلة البناء السرى (الطفل العملاق الطيب)، والتحمل العطائى (حمل الحامل) ، قد تتم حتى لو لم يأخذ الطفل حقه، ولا يصل إلى الأم بعد نجاح الكائن الجديد أن ينمو، ويتحمل، ثم يستمر، ويمجمل، إلا أنها ترى طفلها "الوالد" أصبح قادرا على العطاء، وأن عليه أن يستمد وجوده من التمادى في هذا الدور الذى أوضحنا ثمه بشكل شبه كامل في النشرات السابقة (حمل الحامل) نشرات 28/7/2010 : (، 4/8/2010 ، 11/8/2010)

الأم هنا تنكر تساؤلات ابنها الوالد، ولا ترى احتياجات ابنها "الوليد"، لكنها لا تتنكر لها، فهي لا تتصور أن هذا الوالد المعطاء إلا أنه قادر بالتالى على "التغذية الذاتية" بمواصلة العطاء، وأنه سوف يكتمل بمواصلة ذلك دون حاجة إلى هذه الوقفة وهذه التساؤلات وإعلان هذا الاحتياج هكذا، فهي تضى تطمئننه وترئ نفسها:

= يا جدع يا أمير ياللى بتدّى،

إوعى هدى.

تتكد إدى

بكره تغدى.

ياسلام يا ولد.

ما فى زيك حد.

ماتفكرشى، دا الفكر مرار.

ودا بر يابنى وما لوهشى قرار.

- بس ياشه لو قلتي ليه ؟

كان ليه ؟

= جرى إيه ؟ فيه إيه ؟

(كان ليه ؟ كان ليه ؟)

دُهْدِي! هَيَّا! "عائلة"؟

وَأنا قصدى ؟ دُهْدِي!!

تحتد الأم بحق على أنه حتى لو أنها عجزت أن تعطى وليدها اعترافا يستحقه، حتى لو أنها مسئولة ضمنا على هذه الوقفة ومحتوى هذا الاحتجاج، حتى لو أنه يلومها حبا وضعفا طبيعيا، فهي غير مدانة، وهي لم تقصد أيا من ذلك، لكن، لعل هذا هو غاية ما عندها

وإلى الحلقة القادمة

- مجموعة هذه القصائد في تصورى تتكامل ويمكن أن تجمع مستقلة لتبين نوعا من المسار يضطر كثير من الناجحين أن يسلكوه